

مالك بن نبي

دور المسلم في العالم

في الثلث الأخير من القرن العشرين

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر
البيروت

7

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دَوْرُ الْمُسْلِمِ رَسَالَةُ اللَّهِ
فِي التَّلَاكُمِ الْأَخِيرِ مِنَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ



الكتاب ٩٢٥

الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م

جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر بدمشق ، بإذن من الأستاذ عمر مستقوي
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير ، كما يمنع
الاقتراس منه ، والترجمة إلى لغة أخرى ، إلا بإذن خطي من
دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق

طبع بالجزائر بإذن من دار الفكر - دمشق
بالتعاون مع الملكية للإعلام والنشر والتوزيع
38، مزرعة رشيد، كورقة - الحراش

الملكية
بالتعاون مع الملكية للإعلام والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب نص المحاضرة الأولى ، التي ألقاها المؤلف - رحمه الله - في رابطة الحقوقيين بتاريخ ٢٣ صفر ١٣٩٢ للهجرة ، الموافق ٢٨ آذار (مارس) ١٩٧٢ للميلاد ، في مدينة دمشق ، تحت عنوان (دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين) .

ونص المحاضرة الثانية التي ألقاها في مسجد المرابط ، في مدينة دمشق بتاريخ ١٩ ربيع الثاني ١٣٩٢ هـ الموافق ٢٢ أيار (مايو) ١٩٧٢ م ، تحت عنوان (رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين) .

تقديم

(دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن
العشرين)

هاتان محاضرتان من نفحات دمشق .

نفحات طالما استفاض بها فكر المرحوم مالك بن
نبي ، وهو في زيارة هذا البلد العزيز ، فأعطى الكثير ،
وأضاء من جوانب فكره ما حمل المزيد من المؤلفات .

ففي عام ١٩٥٩ م زار الأستاذ مالك دمشق لأول
مرة ، فأحب فيها شغفاً إلى الجديد من الفكر ، واهتماً
بما سبقه إليها من عطاء أعطاه في القاهرة ، في (شروط
النهضة) و (الظاهرة القرآنية) و (الفكرة الإفريقية
الآسيوية) ... وهكذا تتابعت أفكار بن نبي كتاباً إثر
كتاب ، وتتابع الاهتمام بها سحابة من الزمن غير
يسيرة .

وفي بداية السبعينات ، أحس كأننا أوشكت مسيرته على طريق الرسالة تبلغ الأجل الذي أجله الله لها ، فرَّ بيروت عام ١٩٧١ م ، ثم بطرابلس لبنان ، وأودعني - رحمه الله - وصية سجلها في ١٦ ربيع الثاني ١٣٩١ هـ الموافق ١٠ حزيران (يونيو) ١٩٧١ م في المحكمة الشرعية في طرابلس ، حملني فيها مسؤولية الحفاظ على أفكاره والإذن بنشر كتبه .

ثم عاد في العام التالي عام ١٩٧٢ م ، فرَّ بدمشق وهو قافل من رحلة الحج الأخيرة ، ليقف على منبرها الفكري ، ويلقي وصيته الأخيرة في رحاب مسجد المراتب ، وفي هذا مافيه من دلالة جغرافية وفكرية معاً . أما الجغرافية فلأنه كان يشعر بأهمية دمشق وسورية على وجه العموم بصفتها موقعاً جغرافياً ملائماً ، مارس دوره التاريخي في نشر الأفكار ، التي أثرت في مسيرة الأمة العربية منذ بداية هذا القرن . وأما الدلالة الفكرية الخاصة ، فلأن الحديث عن رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن ، قد استلهم روحه في بيت من

بيوت الله اتخذ اسم الم رابط ، ذلك التعبير الإسلامي الذي يحمل قيمة الإنسان ، في أرفع حالات التأهب النفسي للدفاع عن الرسالة والقيم .

فالأستاذ مالك يربط بين الفكر والفعالية ، فالفكر بغير فعالية إنما هو ترف لا يزن شيئاً في موازين التاريخ ، والفعالية بغير فكر طريقٌ أعمى لا يدفع المجتمع في سبيل التقدم .

هذه وصية تركها مالك بن نبي في ضمير أجيال ، تتلمس الخروج من أزمتها الراهنة ، وما نقول فيها ونحن نبلغها إلا كما قال الرسول ﷺ : « رَبِّ مَبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ »^(١) .

٨ شوال ١٣٩٨ هـ
دمشق في ١٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨ م
عمر مسقاوي

(١) رواه البخاري والترمذي والدارمي وابن ماجه وأحمد ، مع اختلاف في الروايات .

دور المسلم

في الثلث الأخير من القرن العشرين

محاضرة الأستاذ مالك بن نبي

في رابطة الحقوقيين في دمشق

٢٣ / ٢ / ١٣٩٢ هـ = ٢٨ / ٣ / ١٩٧٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خير المرسلين .

أيها السادة الكرام ، الأبناء والطلبة الأعزاء !

إنني لأستطيع أن أقدر هذه اللحظة حق قدرها في سجل حياتي مع أن اللحظات واللقاءات تتكرر . إنني أشعر بمزيد من السرور والفرح إذ أتحدث مع هذه الطائفة من الشباب المسلم في هذه الأصقاع من البلاد الشقيقة ، سورية العزيزة ، وفي معقل من معاقل الإسلام ، المعقل العريق دمشق . ويجب علي أن أتوجه بالشكر لإخواننا الحقوقيين الذين أفسحوا لنا المجال وقدموا لنا هذا المكان ، لنعرض ما استطعنا دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين في رأينا .

لو حاولنا تحديد دور المسلم عامة ما كان لنا أن نختار سوى ما اختاره الله له دوراً في التاريخ . يقول عزَّ

وجلّ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ
عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾
[البقرة : ١٤٣/٢] . هكذا يحدد الله دور المسلم بصورة
عامة ، وليس لنا أن نختار له دوراً أشرف وأفضل منه ،
وإنما نلقت النظر إلى خطورة هذا الدور وإلى
مقتضياته ، التي هي من اختصاص الفقهاء ومن
اختصاص الحقوقيين ، لأنهم يعرفون شروط تزكية
الشهادة ، والشاهد من الناحية العقلية ومن الناحية
الأخلاقية معاً .

لكن لماذا أفردنا وتعمدنا إفراد فترة معينة من هذا
القرن ؟

أولاً : لطبيعة القرن العشرين التي يتميز بها عن
القرون الأخرى كلها ، لأنه القرن الذي تحققت فيه
تغيرات جذرية ، بدت وكأنها ترسم للإنسانية نقطة
اللا رجوع على محور الزمن ، فهو القرن الذي هبت فيه
أكبر عواصف التاريخ على مصير الإنسانية .

ثانياً : لأنه القرن الذي سجل الأحداث الكبرى ،

سواء في مجال العلم ، أو - كما سنرى - في المجال النفسي ، أو في المجال الأخلاقي والديني . ففي كل هذه المجالات هبت عواصف كبرى يبدو أنها غيرت معالم الطريق . وعلى أية حال فهي قد غيرت ملامح الزمن والمجتمعات الإنسانية .

هذه التغيرات تحققت من خلال أحداث كبرى ، خاصة منها الحربين العالميتين اللتين هزتا العالم مرتين في ظرف أربعين سنة ، وشملتا للمرة الأولى في التاريخ سائر أنحائه . ولوقع هذه الأحداث نتائج لا مناص منها ، بعضها دخل سجل التاريخ وتسجل في حافظة الإنسانية وفي كتبها ، وبعضها دخل عالم النفوس ، سواء استطعنا قراءته أم لم نستطع ، وبعضها لا زال توقعات في ضمير الغيب نرى من خلالها أحداثاً كبرى مطلة على زماننا .

فهذه الأسباب تجعلنا نرى في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين ، كأنه النهر قرب شاطئ البحر وقد بلغ المصب ، بعد أن تجمعت فيه جميع روافده من المياه ، التي انحدرت من أعالي الجبال في أقصى داخل البلاد . فالثلث الأخير يبدو هكذا تلك الفترة من التاريخ التي

تتجمع فيها كل روافد التاريخ ، بكل نتائجها النفسية والاجتماعية والسياسية والعلمية ، وكل التغيرات المترتبة على هذه النتائج . وعليه فإن هذه المسوغات تكفي لتسويق اختيارنا له بصفته حقبة زمنية استثنائية في التاريخ ، يكون دور المسلم فيها شيئاً استثنائياً أيضاً ، يجب إدراجه بطريقة خاصة في الدور العام الذي حدده له القرآن الكريم بوصفه شاهداً ، وذلك أمر يجب أن يدخل في اعتبارنا ويجب أن نقدره بقدر ما يمكننا من الواقعية ، حتى تقدم لشبابنا الصورة الموضوعية ، التي يرى من خلالها دوره هو ودور إخوانه الآخرين فيه ، لأن رسالة الجيل الناشئ ستحقق على أية حال إما سلبية أو إيجابية فيه ، فهو ثلث تحقق رسالته .

ولكي نتبين طبيعة هذا الدور ، الذي يجب على الشباب المسلم أن يتصدى - منذ الآن - للاضطلاع به في هذه الحقبة المواجهة له ، المنفتحة أمامه ، يجب أن نراجع بعض السمات التي يتميز بها هذا الثلث الأخير في العالم المتحضر ، لأن مركز الفكر العالمي اليوم يوجد على محور

سبق أن سميناه ، في كتاب سبق نشره^(١) ، محور
(واشنطن - موسكو) ، محور القوة ، محور العلم ، محور
الحضارة .

يجب إذن أن نلتفت إلى هذا المحور ، مركز الثقل
الذي تطبع عليه الأحداث كل أبعادها العالمية ،
ونتساءل ما الذي طرأ على هذا المحور ؟ ماذا حدث فيه
خلال القرن العشرين ؟ ماهي التسجيلات الخاصة
- وهذا ما يهمنا - في العالم الثقافي وفي العالم النفسي
عليه ؟.

إن الأجيال في هذا المجتمع المتحضر عاشت على رصيد
ثقافي ورثته من الأجيال السابقة ، أعني أنها عاشت على
رصيد المسوغات التي دفعت عجلة التاريخ في القرون
الماضية ، وخصوصاً في القرن التاسع عشر والقرن
العشرين . والذي يبدو - خاصة إذا رجعنا إلى فترة
مابعد الحربين العالميتين - أن هذا الرصيد من المسوغات
الضرورية لتحمل أعباء الحياة ، بدأ ينفد ، وبدأت

(١) الفكرة الإفريقية الآسيوية .

الشعوب التي تعيش على محور (واشنطن - موسكو) ،
الشعوب المتحضرة ، بدأت تشعر جميعها بنفاد رصيدها
الثقافي ، رصيد مسوغات حياتها التقليدية الموروثة عن
أجدادها ، وبدأت فعلاً تجري عمليات تعويض في شتى
الميادين ، حتى في ميدان الأدب حيث نرى لوناً جديداً
يظهر تحت اسم (الوجودية) .

وإذا كان من حق أصحاب هذا اللون من الأدب أن
يحللوا القضية من الناحية الأدبية ، كما يفعل (كير
كجارد وهايدجر وسارتر) ، في كل من الدانمرك أو
ألمانيا أو فرنسا ، فإن من حقنا نحن أن نحلله من ناحية
أخرى . فنرى فيه رد فعل أدبي على شعور غامض
لفقدان المسوغات في المجال النفسي .

والسؤال الآن كيف فقدت هذه المسوغات ، التي
تحركت ودارت عليها عجلة التاريخ طيلة القرون
الماضية في أوربة ؟

لنتصور كيف كان ينشأ الطفل في زمان
(كيلنج) مثلاً أو في زمان (أرست رنان) مثلاً .

كيف كان ينشأ في بيته ؟ ثم كيف يتعلم في مدرسته ؟ ثم كيف كان يتوجه في عمله بعد التخرج من الجامعة ، أو عندما يبلغ أشده ويتوجه إلى الحياة العملية جندياً في تلك الجيوش التي تفتح البلدان التي تسمى المستعمرات .

كان الطفل في ذلك الوقت ينشأ وحوله جو من الأفكار منبتها الاستعمار ، أي المناخ الاستعماري الذي تكوّن في أوربة وفي أمريكا على حدّ سواء ، وفي الاتحاد السوفييتي قبل الثورة أيضاً . هذا المناخ الاستعماري هو الذي كان ينشأ فيه الطفل منذ ولادته ، نشأة لا يبدو معها غريباً في هذا المناخ الذي كان يسود العالم المتحضر ؛ أن يقوم من فرنسا كاتب قصصي كبير في أواخر القرن الماضي هو (جلفرن) ، ليكتب عن ملحمة لا تمت بصلة إلى بطولة الفرنسيين أو بطولة الجيش الفرنسي ، هي ملحمة عنوانها (ميشال ستروجوف) ، بل تتصل بفتح روسيا للبلاد الإسلامية في بخارى . وكانت قصة غريبة فعلاً ، إن دلت على شيء فإنما تدل على سيادة المناخ الاستعماري شرق البلاد وغربها ، ذلك

المناخ الذي سيتم فيه إبرام الميثاق الاستعماري في مؤتمر برلين ١٨٨١ م ، حيث كان الضمير الأوربي ، الضمير المتحضر يعيش هذه الملحمة المتفقة مع روح ذلك الميثاق ، فلا نستغرب معه استعمال تسميات الاكتشافات الاستعمارية والفتوحات الاستعمارية . لكن الشيء الذي يهمنا نحن من جانب التحليل اليوم - كي نعود إلى موضوعنا - هو كيف فقدت المسوغات ؟

كان الطفل يشبع جانب تعطشه للأشياء الغريبة والقصص النادرة وقصص البطولات ، في جو الاستعمار وفي ملحمة الفكرة الاستعمارية نفسها ، لذلك لانستغرب أن نرى رجلاً ك (ستانلي) في أواخر القرن الماضي ، نشأ في هذا الجو وتكونت عنده فكرة الاكتشافات وفكرة الفتوحات ، نراه يغادر وطنه وينزل إلى إفريقيا الوسطى فيحتل قطاعاً كبيراً منها . لقد كان يرى ما يراه على الخريطة قطعة بيضاء فراودته الفكرة أن يلونها بلون ما ، وكان اللون الأحمر على الخرائط المستعملة في أواخر القرن الماضي مخصصاً لتلوين

المستعمرات الفرنسية ، واللون الأخضر لتلوين
المستعمرات الإنجليزية ، واللون البني لتلوين المستعمرات
البرتغالية ، واللون الأصفر لتلوين المستعمرات
الهولندية إلخ ... فأراد (ستانلي) أن يلون قطعة ما
من إفريقية بلون يخول هذه القطعة أن تكون هدية
لأوربة بصفتها مستعمرة ، وقد أهداها فعلاً لما تمّ وضع
اليد عليها - على الكونغو - ، إلى تاج بلجيكا وكأنها ملك
أجداده أو قطعة من تَرَكتهم يقدمها إلى ملك أو ملكة
بروكسل .

أما إذا كان هذا الأوربي جندياً فإن نشأته في هذا
الجو ، تصور له أن المجال لأداء واجباته الوطنية
وواجباته العسكرية ، هو قطاع من قطاعات إفريقية
وآسية .

هكذا كانت الأمور تسير ، وهكذا كانت تتفتح
نفوس الأطفال في أوربة . يضاف إلى ذلك تدخل بعض
الأشياء ذات الجانب الخفي ، الجانب الذي يتصل بما
نسميه الصراع الفكري ؛ الأشياء التي تصور لهذا الطفل

الناشئ حتى قبل دخوله إلى المدرسة الابتدائية أو قبل خروجه منها - في مجالات متخصصة للأطفال - تصور له آيات البطولة في إفريقية على حساب أولئك البرابرة من السود أو من الصفر ، مما يجعله يعتقد عندما ينزل بلاداً مثل (شنكهاي) في أواخر القرن الماضي ، أنه هو رب الصين . فيضع لافتة على باب الحديقة - رأيناها نحن عندما زرنا الصين ، لأن الحكومة الصينية تركتها كما هي بعد خروج الاستعمار منها - كتب عليها « لا يدخل هذه الحديقة الكلاب ولا الصينيون » ، بعض الكلاب طبعاً . لقد كان ترتيب الكلمتين الكلاب أولاً والصينيون ثانياً .

هذا هو المناخ الذي كانت تتكون فيه نفوس الأطفال ونفوس الشبان ونفوس الرجال ، وهذا هو المناخ الذي كانت تنطلق فيه الطاقات - طاقات لا تختقرها فعلاً - كتلك الطاقة الجبارة التي نتصورها في شخص مثل الأب (دوفوكو) ، الذي تطوع أن يذهب في سنة ١٩٠٨ م على الأقدام ، من مدينة في جنوب

الجزائر ، لفتح القطاع الصحراوي حتى حدود ما يسمى بالسودان الغربي . فهذه الأشياء كانت تغمر الحياة الأوربية بفيض من المسوغات . وربما كانت هناك منابع أخرى لهذه المسوغات فقدت أو جفّ نبعها بعد الحرب العالمية الأولى والثانية ، بسبب تطورات تتصل بما حدث مثلاً بشأن الروابط الخفية أو الظاهرة بين مجالي العلم والنفس .

فبقدر ما كانت تتحقق اكتشافات علمية كبرى في أوربة ، بقدر ما كانت تترك صداها على المجال النفسي ، وأثرها الكبير في التطور الروحي ، حتى بدأت تفتقر بعض المسوغات الروحية لأسباب لانطيل عندها الوقوف ، حتى لانتعدى بعض الحدود من اللياقة .

هكذا فقدت المسوغات الروحية ، وفقدت حتى المسوغات التي نسميها المسوغات الاجتماعية ، المسوغات الموضوعية .. وإذا أردنا أن نعرف المسوغات الموضوعية نذكر على سبيل المثال ، ما كان لهم من ثقة بكلمتي العلم والحضارة ، فقد كانت هذه الثقة هي منطلق الأفكار

الأوربية في القرن التاسع عشر ، وفي بداية القرن العشرين ، خصوصاً قبل الحرب العالمية الأولى .

والصلة بين هذين الجانبين واضحة . فحينما تفقد حياة ما أو مجتمع ما مسوغاته ، لابد أن يقوم بعمليات تعويض : يستبدل بمسوغات قديمة أو تقادمت ، أو فقدت تأثيرها في الحياة الاجتماعية ، بصفتها دوافع قوية للحياة الفكرية والعلمية والعسكرية والاقتصادية ، يستبدل بها مسوغات جديدة .

فإذا لم تأت عملية التعويض كما ينتظر منها بالمسوغات الجديدة فماذا يحدث عندئذ ؟

تحدث الأزمة الخطيرة التي يعيشها العالم المتحضر اليوم .

فالعالم المتحضر اليوم ، يبدو أنه قد أخفق في عملية التعويض ، سواء من الجانب الأدبي كمحاولة الوجودية مثلاً ، أو من الجانب السياسي كمحاولة الرجوع لأصله الأوربي ، بحثاً عن منطلقات جديدة لأفكاره ولنشاطاته

الاقتصادية ، فكأنما تقطعت أنفاسه ، ولم تعد في متداوله
تلك الأشياء المتينة التي كان يرتكز عليها في القرن
الماضي وبداية هذا القرن .

وعندها فإن من الطبيعي أن لا يجد سنداً في
مسيرته التاريخية سيقع في حيرة وتيه وقلق . وهذا
ما يفسر لنا ما نراه اليوم ، من حيرة قائمة فعلاً في العقول
والنفوس والأرواح . فإذا ما اجتمعت هذه الأشياء فعلاً في
نفس بشرية ، فعندها يمكن أن نتصور ما تولده من
دوافع سلبية . فإذا ما فقد مجتمع ما مسوغاته ولم يستطع
تعويضها بالطرق المشروعة في محاولات مبذولة ، عندها
يعتريه القلق ويعتريه التيه وتعتبره الحيرة ...

فماذا يترتب على هذا من تصرفات ؟

يترتب عليها التصرفات التي نراها في أوربة
وأمرىكة اليوم .

يترتب على هذا مثلاً : أن نجد البلد الذي حقق
الضمانات الاجتماعية إلى أقصى حد مثل السويد ، يتميز

بشيء خطير وهو أنه يتصدر رأس القائمة في (إحصائية الانتحار العالمية) . فظاهرة الانتحار في العالم ، يشغل فيها المكان الأول ، البلد الأكثر تقدماً نسبياً من حيث الضمانات الاجتماعية .

وهذا إن عني شيئاً فإنما يعني أن البطون إذا امتلأت لاتغني النفوس ولا تشبعها .

إذا شبت البطون قد تبقى الأرواح متعطشة ، تبقى الأرواح متطلعة . وحين لاتجد وجهة تتطلع إليها تفضل الاستقالة من الحياة . هذا إذن مايحدث ، وقد يحدث في بلاد أخرى أكثر من هذا في صورة ما ؛ ويبدو أن هناك صوراً أخرى للاستقالة من الحياة ، هي في الحقيقة أشنع من الناحية الأخلاقية ، ولا أقول من الناحية الدينية . فهي أشنع لأن كل صور خيبة الأمل تتجلى فيها ، مع شيء من العجز حتى عن القيام بهذه المحاولة لإعدام النفس . وذلك أن هذه المحاولة تتطلب شيئاً من الشجاعة . ولأن الإنسان فقد مروءته إلى درجة الفشل ، حتى في التخلص من الحياة بالطرق غير

المشروعة ، فإنه يفر منها عن طريق الموبقات ، عن طريق التدهور الأخلاقي ، عن طريق الإدمان على المخدرات ، فيصبح المجتمع مهدداً بالخراب ، لأن قاعدته الاجتماعية تنهار ، أي شبابه ينهار .

إن بعض الإحصائيات الأخيرة ، التي وقعت بين يدي عن إدمان المخدرات في محافظة باريس ، والتي نشرتها مصلحة الأمن في هذه المحافظة ، في تقرير رسمي صادر عن مجلة تصدرها تلك المصلحة ، تفيد أن نسبة المدمنين بين الشباب للمخدرات ، تضاعف بنسبة عشرين في المئة في السنتين الأخيرتين ، فبإمكانكم إذن أن تتصوروا ماذا سيكون معدل ارتفاع النسبة خلال السنوات العشر المقبلة . ويمكن ، إن جرت المسائل كما تجري الآن ، أن يعم الإدمان الشباب كله في باريس . وأظن أن الأمور تجري على الوتيرة نفسها في سائر أنحاء فرنسا .

يبدو أن الشباب الفرنسي سوف ينهار ، وسوف يحاول الانفلات من حياة فقدت مسوغاتها ، عن طريق

المحذرات . إن دلّ هذا على شيء ، فهو يدل على أن المجتمع يفقد الآن قاعدته الاجتماعية المتينة وهي شبابه ، يضيّعه إما في المتاهات ، أو في الخمارات ، أو في المحذرات أو في المقابر ، عندما ينتحر .

وهذا ما يدعونا بالطبع إلى أن نحلل هذه الأشياء .

ماذا تعني هذه الأشياء ؟ ماذا تعني هذه اللوحة القائمة التي قدمناها بخطوط سريعة ، بعبارات فجّة ملتقطة يميناً وشمالاً ؟

إذا مضينا قليلاً في حلّ الأزمة خصوصاً في أمريكا ، يبدو لنا أن المجتمع الأمريكي يعاني ظاهرة تضخم من ناحية وتناقص من ناحية أخرى . تضخم الإمكان الحضاري وتضاؤل الإرادة الحضارية . أي تناقض بين الإرادة الحضارية والإمكان الحضاري .

إذا أردنا توضيحاً أكثر ، نقول : إن الهوة أصبحت تتسع بين الواقع الطبيعي الإنساني الذي ورثه وورث مسوغاته التقليدية وبين واقعه الثقافي اليوم .

فالهوة بدأت تتسع ، والإنسان أصبح يتزق - خاصة الشباب - بين فكرة لا يستطيع التخلص منها تماماً لأنها مسجلة في طينته البشرية ، تلك الطينة التي كرمها الله ، وبين واقع ثقافي لا يقدم له مسوغات ولا يعطيه بديلاً عن مسوغاته التقليدية المفقودة .

هذه هي الصورة التي نستطيع تقديمها في خطوط عريضة ، عن الحياة في المجتمع المتحضر وعلى محور (واشنطن - موسكو) . وإذا تساءلنا الآن هل ظاهرة التدهور والانحلال .. هذه فاقدة المعنى بالنسبة للمؤرخ ، الذي يريد أن يفيد حتى من التجارب الشاذة المؤلمة ؟ .

نستطيع أن نقدم افتراضاً احتالياً فنقول : لعلّ الله يريد شيئاً من وراء هذا كله . كأنما هذا استدراج ، تسوق الأقدار فيه هذا المجتمع المتحضر إلى طريق ، حيث تنتهي فيه أخطاؤه ، ليفسح مجالاً لتجربة أخرى بعد إخفاق التجارب السابقة ، ونحن نرى فعلاً أن التجارب الأساسية في التاريخ لن تبدأ حتى تحقق قبلها كل التجارب السابقة التي فقدت أسسها التاريخية .

يجب أن ينتهي التاريخ في نقطة ما كي يتجدد التاريخ من نقطة جديدة .

يجب أن يكون هذا مفهوماً وخاصة لدى الشباب .
يجب أن يخفق التاريخ ، يجب أن يفلس التاريخ .
وأحياناً يجب أن نعلن الإفلاس كي نشعر الناس وخصوصاً الشباب بأن هذا الإفلاس هو طريق البداية . فلعلّ هذا الذي نراه على ذلك المحور استدراج لشيء ربما تعبر عنه الآية الكريمة : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ، [الصف : ١٧٦] . ربما هذا هو القطب الذي يتجه إليه مجرى التاريخ في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين . وعلينا أن نتأكد بقدر إمكاننا من هذا ، وليس لنا أن نقرر ونبتّ في شيء قبل انقضائه ، فلم أنتم أيها الشباب بعد ثلاثين سنة أن تتروا الحقيقة سافرة كما هي . أما نحن في جيلنا فلا نرى إلا توقعات ، ونحاول أن نرى من خلال هذه التوقعات جانباً من مصير الإنسانية .

يجب علينا أن نقوم بعمليتين : أن نرسم خريطة ،

الخريطة (الأيديولوجية) كما يقولون اليوم أو خريطة
الأديان كما نقول نحن ، في العصر الذي تنزلت فيه هذه
الآية ، وهذه الآية فيما أظن آية مكية^(١) أعني في
البداية ، أعني في نقطة الصفر .

لو كان لنا أن نرسم الخريطة فعلاً في وقت تنزلها
- تنزيل الآية - لوضعنا على الخريطة نقطة من لون
معين يعبر عن رقعة الإسلام في العالم وهي مكة ، فلونها
بلون ما . هذا اللون الإسلامي لا يعدو أن يكون نقطة
في الكون ...

بينما تنزل هذه الآية كأنها تحدُّ لهذا الواقع ، كأنها
تحد لا يتصوره العقل تصوراً لو كنا معه نحن معشر عباد
القرن العشرين ، بعقلانيتنا وعلميتنا نعيش في وقت
التنزيل لقلنا هذه خرافة . ماهي هذه الخرافة ؟ إن
هذه الآية تتحدى !!... تتحدى الإمبراطوريتين
والحضارتين القديمتين الكبيرتين : إمبراطورية وحضارة
فارس من ناحية ، وإمبراطورية وحضارة بيزنطة

(١) نزلت الآية في الحديبية سنة ٦ هـ (المصحح) .

والبحر الأبيض على العموم من ناحية أخرى ، فهذا التحدي هو من أقصى معجزات القرآن في الحقيقة ، وذلك عندما نتصوره في وقت التنزيل ، لأننا إذا رسمنا الخريطة الأيديولوجية آنذاك فإذا نجد عليها ؟

إننا نجد عليها لون المجوسية أو لون الديانة الفارسية ، ولون البوذية ، ولون البرهمية أو لون الهندوكية كما يقولون ، ولون المسيحية ، ولون اليهودية ... ونقطة مغمورة في الكون هي مكة نقطة الإسلام .

فلو أردنا ونحن في ذؤابة القرن العشرين ، الثلث الأخير منه ، رسم خريطة جديدة للأديان اليوم ، في عام ١٩٧٢ م فإذا نجد ؟

نجد أن البوذية قد شطب عليها قلم السيد (ماوتسي تونغ) فحاشا من الوجود . وأما المجوسية فقد محاشا عزم يوم القادسية . وأما البرهمية فقد محتها ظروفها الخاصة بوصفها ديناً لا بوصفها ثقافة ، فهي بوصفها تراثاً ثقافياً ستبقى إلى أجل لاندري مداه

- تتجنب التكهّنات - أما بوصفها ديناً فقد انتهت وانتهى دورها ، لقد فشلت في أبسط مهامها خاصة بعد استقلال الهند ، فقد سجلت الهند في السطور الأولى من دستورها عام ١٩٤٨ م ، أنها سوف تقضي على حالة المنبوذ ، وكان من سجل هذا إنما سجله تحت إملاء الروح الكبير كما يقولون أي (مهاتما غاندي) ، وقد سجل هذا البند في أحسن ظروف تطبيقه بعد الخلاص من محنة الاستعمار ، وبعد فرج الاستقلال وفرحة الاستقلال .

واليوم إذا راجع الهندوكي أو راجعنا نحن القضية بعد عشرين سنة نراها قد فشلت فشلاً ذريعاً . وهي قضية لا تتصل بمصير عشرة آلاف مثلاً بل تتصل بمصير ثمانين مليوناً من البشر تقريباً ، وهذا ليس بالشيء الهين . لقد فشلت لأنها لم تستطع حل المشكلات الاجتماعية ، وهذا يعني كأنما قد قدمت استقالتها من التاريخ .

أما المسيحية فقد حدث لها أيضاً في الفقرة الأخيرة تطورات غريبة عبر عنها ذلك المجمع المسكوني الأخير ،

وقبله جمع الفاتيكان الثاني . لقد أصبحت تعاني من مشكلات تعبر عن ظروف خطيرة جداً تواجهها المسيحية اليوم . فالمسوغات المسيحية بدأت فعلاً تفقد تأثيرها في الحياة المسيحية ، فقد بدأ بعض القسيسين - على رغم من تأديتهم يمين الدخول في سلك الرهبنة : يمين أنهم يعيشون من أجل الله ، وأنهم لا يتزوجون ويلتزمون بجميع شروط الرهبانية - بدؤوا بعد هذا اليمين المقدس - على شروطهم - يصرحون في الصحافة ؛ وفي مؤتمرات صحفية كبرى تدور أحياناً أمام عدسة المصور ، ويعلنون أنهم ألقوا المسوح وتخلصوا من أعبائه وأنهم تزوجوا..

ونرى المعركة تدور في مستوى أعلى ، على مستوى الكردينالات في الفاتيكان ، فيقدم كردينال هولندي (الكردينال سانس) استقالته من المجمع المسكوني ، مساندةً للقساوسة من الشباب الذين تمردوا على المسوح وشروط لباسه ، ثم احتجاجاً على سياسة الفاتيكان الاجتماعية .

ما معنى هذا بالنسبة إلينا نحن الذين نحلل هذه الظروف ... ؟

معناه أن المسيحية بدأت فعلاً تفقد المسوغات التي يجب تقديمها للشباب القسيسين وللمرأة على حد سواء .

ولقد حدث الذي كان لا بدّ من أن يحدث على أثر فقدان المسوغات . حدث أن بدأت دور التعليم العالي المسيحي في العالم ، خاصة في أمريكا اللاتينية تغلق أبوابها الواحدة بعد الأخرى ، ثم تبعتها الأديرة . ذلك لأن فتيات المجتمع الإيطالي قد انصرفن لمجالات أخرى من النشاط الأخلاقي ، غير تلك التي تشرف عليها الهيئات الكهنوتية . وهكذا رأينا من سنتين حادثة ربما بلغكم صداها : أن أحد الأديرة ذا التاريخ العريق الممتد إلى ستة أو سبعة قرون - كانت أبوابه خلالها مفتوحة دائماً - أصبح مهدداً بالإغلاق ، لأنه فقد البنات المتطوعات لسلوك الرهبنة ولبس المسوح ، مما جعل القس المشرف على إدارة هذا الدير ، يرى نفسه مضطراً أن يقوم بعملية أخذت أبعاد الفضيحة ، وذلك حينما اكتشفتها صحيفة إنكليزية . لقد ذهب هذا القس لتفادي الوضع في دير - ونحن نعلم كم كان له من عطف

وحنان على حياة هذا الدير - إلى الهند وإلى منطقة فقيرة (منطقة كارالا) ، فاشترى منها عدداً من البنات بالعملة الصعبة ، كي يعلمهن ارتداء لباس المسوح والقيام ببعض الطقوس البسيطة ، وذلك لمدة شهرين قبل أن يزج بهن في الدير ، كل هذا كي يبقى الدير ...

ولكن صحيفة إنكليزية قد أفشت هذا السر للأسف ، ثم تناولته الصحافة العالمية فأصبح فضيحة ، وأصبح الفاتيكان يحاول التغطية بقدر الإمكان ، لأنها فعلاً فضيحة .

فإذا رجعنا إذن إلى الخريطة المرسومة أمامنا نجد أن اللون المسيحي أيضاً يعاني ما يعاني ، فهو كأنما بهت أو شحب .

ونرى على الخريطة شيئاً غريباً : إن اللون الإسلامي ولوناً آخر جديداً - هو لون ديانة جديدة - يكتسحان العالم . فاللون الإسلامي اليوم يغطي مساحة من الدنيا تعادل نصفها تقريباً (مساحته الإفريقية والآسيوية تقدر بنصف الدنيا تقريباً) ، وعدته البشرية

تبلغ (٨٠٠ مليون) - حصّلنا هذا الرقم من إحصائية
أخيرة تحت إشراف الأمم المتحدة - . ولكي نعطي هذا
العدد الاعتبار الصحيح يجب أن تكون لدينا فكرة عن
نموه في عدد من السنين . إنني حينما قرأت لأول مرة
ما يسمى بالجغرافيا البشرية وأنا ابن ١٢ أو ١٣ سنة كان
توزيع أتباع الأديان كما يلي : للمسيحية فيما أظن (٦٠٠
مليون) وللبوذية (٥٠٠ مليون) وللبهيمية (٤٠٠
مليون) وللإسلام (٢٥٠ مليوناً) . وفي أوائل الحرب
العالمية الأولى كان هذا عدد المسلمين كلهم في العالم ، أي
إن عدة العالم الإسلامي البشري كانت (٢٥٠ مليوناً) .
فها نحن أولاء في مدى نصف قرن مثلاً نرى أن العدد قد
تصاعد إلى ما يقرب الآن من المليار .

إذن فنحن نرى طرفين في القضية وعلى خطين
متوازيين : نرى أن سير التاريخ كأنما يستدرج العالم إلى
فشل تجاربه وخيبة أمله ، في تجاربه العلمية
والتكنولوجية إلخ ... من ناحية ، ومن ناحية أخرى نمو
العالم الإسلامي كما وكيفاً : كما من حيث ازدياد السكان ،

وكيفاً باكتساب تجارب جديدة حتى لو كانت سلبية .
ونرى في الخط الموازي كأنما الله يهيئ القاعدة
التاريخية الاجتماعية لتحقيق الآية الكريمة : ﴿ هُوَ الَّذِي
أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
كُلِّهِ ﴾ [الصف : ١٧٦] .

فنحن نرى أن القضية تسير في اتجاه هذا القطب ،
إذ يبدو أن من يسير على الخط الحضاري ، كأنه يستدرج
بأخطائه وباكتشافاته العلمية ، لنتهاً لمن يسير على الخط
الموازي ظروف ظهوره على مسرح التاريخ .

سبق أن أشرنا إلى اللون الجديد الذي ظهر على
الخريطة سنة ١٩١٧ م وهو لون أحمر لون الشيوعية ،
وهي أيضاً دين وأنا أتحدث عنها هنا على هذا الأساس .
فأنا لا أتناول الشيوعية هنا بوصفها مذهباً سياسياً أو
مذهباً اقتصادياً ، وإنما أتناولها في حديثي هذا على أنها
عقيدة ودين تقدم هي الأخرى مسوغاتها ، وهي في
الطريق إحدى عمليات التعويض في العالم المتحضر
للمسوغات التي فقدها . فإذا أخفقت محاولة الوجودية كما

أخفقت محاولة التعويض السياسي ، لتنظيم وبناء جديد
لحياة أوربية متحضرة بعد تصفية الاستعمار ، فيجب أن
نضيف إلى هذا أن عمليات التعويض التي نجحت ، إنما
نجحت على حساب المسوغات الأساسية التقليدية
التاريخية أي على حساب المسيحية . فالشيوعية ظهرت
نتيجة لعملية تعويض لمسوغات مفقودة .

يتبين إذن أن خطي السير والأحداث التي تجري
عليها ، كأنما تقود مصير الإنسانية نحو قطب يتحقق فيه
معنى الآية التي ذكرناها : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾
[الصف : ٩/٦١] .

إن هذا ما يجعلنا نعيد النظر في موقف المسلم في هذا
الثلث الأخير ، إذ الآن يبدأ دور المسلم أمام هذه الظاهرة ،
حتى لكأنما أراد الله عز وجل تعطيل وتأجيل دور المسلم في
هذا القرن حتى تنتهي كل تجارب الآخرين بالنفشل ،
ويستطيع إصلاح أخطائهم ، أو حتى تصل تجاربه إلى نهاية
فشلها فتكون له الخبرة لتدارك أخطائه .

ولكن كيف يتحدد هذا الدور ؟

يتحدد طبقاً لهذه الظاهرة التي نرى جانبيها ،
جانبيها الذي يتحقق على محور (واشنطن - موسكو) ،
والجانب الآخر الذي يتحقق على محور ماسميانه محور
(طنجة - جاكارتا) ، والذي نسميه الآن محور الإسلام .

فكيف نتصور دور المسلم ؟

يجب أن يفكر المسلم كيف يسير في اتجاه التاريخ .
كيف يستغل الظروف السانحة التي تنهأ له على المحورين :
المحور الذي فقد المسوغات التقليدية والذي ينتظر مسوغات
جديدة . والمحور الذي أشار الله عز وجل إليه في الآية
الكريمة : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ
لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [الصف : ١٧٦] .

كيف نتصور إذن دور المسلم ؟

نتصوره طبقاً لضرورات داخلية وضرورات
خارجية : ضرورات إنشاء وتشيد في الداخل ،
وضرورات اتصال وإشعاع في الخارج . ولو ألقينا سؤالا

الآن فلا شك أننا سنتفق على الجواب . فعندما تتساءل كيف يقوم المسلم بدوره في اتجاه تحقيق معنى الآية الكريمة التي أوردناها نجيب آلياً : إن على المسلم أن يبلغ الإسلام ، دون أن نحدد في إجابتنا شروط هذا التبليغ ، وهذا هو المنطق السهل الذي يغرر بنا ، إن الجواب صحيح شكلياً ولكننا بكل أسف نقف عند الجواب ولا نرى مقتضياته الواقعية .

سأعطيك صورة رمزية نطبقها بعد ذلك : هل ترون إلى أرض عطشى تنتظر الري من الماء ؟ هل نستطيع ريهاء بماء يجري تحت مستواها ؟ إن الإجابة ستكون بالطبع : لا باستثناء المجنون أو صاحب الشطحات الصوفية إذ يعتقد أن الماء سوف يطلع إليها فيسقيها . لا لن يسقي الماء الأرض بالصعود إليها ، وإنما بالانحدار وذلك بحكم السنن الإلهية عن طريق الجاذبية . سنة الله تقضي أن ينحدر إلى هذه الأرض إذا كان مستواه يخوله ذلك .

إذن إذا أراد المسلم أن يقوم بدور الري بالنسبة للشعوب المتحضرة والمجتمع المتحضر ، وأراد - بعبارة

أوضح - أن يقدم المسوغات الجديدة التي تنتظرها تلك
الأرواح ، التي تتألم لفراغها وحيرتها وتيهها ، إذا أراد
المسلم ذلك ، فليرفع مستواه رفعاً يستطيع معه فعلاً
القيام بهذا الدور . إذ بمقدار ما يرتفع إلى مستوى
الحضارة بمقدار ما يصبح قادراً على تعميق ذلك الفضل ،
الذي أعطاه الله له (أعني دينه) . إذ عندها فقط يصبح
قادراً أيضاً على بلوغ قمم الحقيقة الإسلامية ، واكتشاف
قيم الفضيلة الإسلامية ، ومن ثم ينزل إلى هضاب الحضارة
المتعطشة ، فيرويها بالحقيقة الإسلامية وبالهدي ،
وبذلك يضيف إليها بعداً جديداً . لأن الحضارة
العلمانية ، حضارة الصاروخ ، حضارة الإلكترون
اكتسبت هذه الأشياء ، وضيعت بعداً آخر تشعر بفقدانه
وهو بُعد السماء .

إن أوربة حققت المعجزات في عالم الاكتشافات
وعالم العلوم .. ولكنها فقدت في أعماق نفسها البعد الذي
كان يروح عليها ويرفه عنها ويسندها في وقت الحزن ،
لأنه يربطها بوجود الله .

إذا أراد المسلم أن يسدَّ هذا الفراغ في النفوس المتعطشة ، النفوس المنتظرة للمسوغات الجديدة ... فيجب أولاً أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود ، إلى ربانية الوجود ، ولا قداسة لهذا الوجود إلا بوجود الله . والمسلم إذا أتى بهذا لا بلسانه ولا بشطحاته الصوفية ، وإنما بوصفه إنساناً معاصراً للناس شاهداً عليهم بالتقى والورع ، بنزاهة الشاهد الصادق ، الصادق الخبير ، الواعي لقيمة شهادته ... إذا أتى المسلم هكذا في صورة الإنسان المتحضر ، الذي اكتملت حضارته بالبعد الذي يضيفه الإسلام إلى الحضارة (وهو بعد السماء) ، عندئذ ترتفع الحضارة كلها إلى مستوى القداسة ، أي إن الوجود الذي فقد القداسة في القرنين الأخيرين خصوصاً في هذا القرن ، تعود إليه قداسته لأن القداسة من الله ومن الله وحده ولا شيء يعطي القداسة لهذا الوجود غير الله .

والسلام عليكم .

رسالة المسلم

في الثلث الأخير من القرن العشرين

محاضرة الأستاذ مالك بن نبي

في جامع المراتب في دمشق

١٩ / ٤ / ١٣٩٢ هـ = ٢٢ / ٥ / ١٩٧٢ م

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

والصلاة والسلام على خير المرسلين .

إخواني ! أيها الأبناء الكرام !!

إن الظرف الذي يجمعني بكم في هذا البيت من بيوت الله ، وأنا على وشك العودة إلى الجزائر ، يجعلني أفكر بدلاً من أن أعيد محاضرة سابقة هي الآن بين أيديكم ، أن أضيف لها بإيجاز حلقة تمثل امتداداً في سلسلة أفكارها . ففي سلسلة الأفكار التي تناولتها المحاضرة السابقة ، انتهيت آخر المطاف إلى نتيجة كبرى ، تضع إشارة استفهام على مصير الإنسانية عموماً ، في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين ، كما تضع إشارة استفهام على دور المسلم في هذا الثلث الأخير . وقد قلت فعلاً في نهاية تلك المحاضرة :

» إن أوربة حققت المعجزات في عالم الاكتشافات

وعالم العلوم ... ولكنها فقدت في أعماق نفسها البعد الذي كان يروح عليها ويرفه عنها ويسندها في وقت المحن لأنه يربطها بوجود الله . إذا أراد المسلم أن يسدّ هذا الفراغ في النفوس المتعطشة ، النفوس المنتظرة للمسوعات الجديدة ... فيجب أولاً أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود» ^(١) .

فحضارة القرن العشرين أفقدت أو أتلفت قداسة الوجود ، في النفوس وفي الثقافة وفي الضمائر . ولقد أتلفت القداسة لأنها عدتها شيئاً تافهاً لا حاجة لنا به .

ولقد انجرت إلى إتلافها بسبب منشأ ثقافتها التي يطلق عليها اليوم (العلمية) ، والتي أخضعت كل شيء وكل فكرة إلى مقاييس الكم منذ عهد ديكارت . لقد حناولت أوربة ونجحت ، ونجاحها قد يفسر لنا اليوم على المدى البعيد ، فشلها في الاستمرار . لقد نجحت في

إخضاع كل شيء لمقاييس الكم ، ولكن نجاحها يفسر
بالتالي الأزمة التي تمرُّ بها اليوم حضارتها ، التي فقدت
كل مسوغات وجودها لأنها أفقدت الوجود قداسته . كان
الوجود مقدساً في كل تفاصيله ، في حياة الحشرات كان
مقدساً ، في حياة الإنسان كان أكثر قداسة ، حتى
الأشياء التي تلقى في الشوارع ، كانت هناك تفاصيل
توحي بقداستها ، كان المار في الشارع إذا التقى بصره
بفتات الخبز ، ينحني ويلتقط هذا الفتات ثم يقبله
ويضعه في مكان طاهر ، لأنه كان يشعر بقداسة هذه
الأشياء . أما الأوربي فلا يهتم هذا ولا يلتفت إليه لأن
هذا الفتات من الخبز ، لا قيمة له في نظره الكمي ، إذ
لا ثمن له ، لذا يلقي مع الأشياء الأخرى في سلة
المهملات . وتركت أوربة في سلة مهملاتها كل قداسة
الأشياء ، وكل القيم المقدسة ، وفي آخر المطاف دار عليها
صولجان علمها وطغيانها العقلي ، كثعبان التوى على
صدرها يضيق عليها الأنفاس ، أوربة اليوم لا تتنفس
التنفس الطليق ، بل تتنفس تحت ضغط عالم الأشياء

المتراكمة . إذ بقدر ماتراكمت الأشياء ، وبقدر ماتراكمت
الإمكانات الحضارية اضمحلت القاعدة الأخلاقية
الروحية المعنوية التي تتحمل في كل مجتمع عبء الأثقال
الاجتماعية والأثقال المادية ، إذ لابدّ من قاعدة روحية
متينة حتى تتحمل هذه الأعباء ، هذه الأعباء التي تزرع
تحتها أوربة أو الحضارة الغربية اليوم وهي في خضم
الأشياء التي تنتجها التكنولوجيا .

من هنا نتصور إذن دور المسلم باعتباره رسالة .
دور المسلم لأنه يعاني أيضاً أزمتته الخاصة به وهو يعلم
ذلك ، إذ لا يمكنه ألا يعلم ، وأعداؤه أصبحوا أقرب من
قبل من معاقله المقدسة . إنني لا أريد أن أشير هنا إلى
أشياء سمعتها أثناء الحجة الأخيرة ، أشياء تدل على أن
الشعور بالخطر موجود في ضمير كل مسلم شعور بخطر
كبير داهم .

إذن نحن نعيش أزمتنا الخاصة بنا ونعيشها بكل
أبعادها ، بعدها الاقتصادي مثلاً ، يكفيننا أن نذكر ،
على سبيل المثال ، أن أخطّ المستويات الاقتصادية في

العالم ، في صورة ما يسمى متوسط دخل الفرد السنوي ، هو في البلاد الإسلامية . إن هذا معناه أن أخطأ الحظوظ ، في هذه الدنيا أصبح للأمة التي خصها الله بالهداية الإسلامية ، وخصها الله برسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في هذه الدنيا . هذه الأمة أصبحت تعاني الأزمات المتنوعة التي قد نجملها في كلمة واحدة نسميها الأزمة الحضارية ، وهي فعلاً أزمة حضارية لا غير . إذن نحن نعاني أزمتنا ومن ناحية أخرى تعاني الإنسانية المتحضرة أزمتها . والأزمة التي تعانيها الإنسانية المتحضرة أخطر وأعمق بكثير من أزمتنا نحن ، لأن أزمتنا لا تمس جوهر كياناتنا الإنساني فيبقى مع أزمتنا على الرغم من كل شيء ، شيء من الكرامة أو شيء من التكريم الذي وضعه الله عز وجل في الإنسان على العموم ، أما الأزمة التي تنتاب الحضارة أو الإنسان المتحضر اليوم ، فهي أحياناً تفقده حتى إنسانيته ، فيصبح إما وحشاً مفترساً ضارياً ينقض على كل ما يستطيع تحطيمه ، أو يصبح حيواناً تائهاً في المآهات التي تفتح له بالمخدرات ،

هذه هي الأزمة الخطيرة التي تعانيها الإنسانية المتحضرة
أو يعانيها الإنسان المتحضر .

إذن الإنسانية بشطريها ، بشطرها المتخلف ،
وبشطرها المتحضر ، تعاني أزمة خطيرة هي أخطر أزمة
في وجودها على سطح هذه الأرض . وفي حين يسير
الزمان كعادته إلى مصب ، فإننا نرى خطورة هذا السير
من خلال التوقعات التي تصورها لنا ملابسات هذه
الفترة من الزمن ، التي نعيشها الآن بكل تقلباتها
السياسية العسكرية الاقتصادية الثقافية . إننا نتصور أن
نهاية هذا الثلث الأخير من القرن العشرين لن تكون
كالفترات الأخرى ، لأن التاريخ سينفرد إلى حد كبير
بأشياء أخطر مما يتصور العقل ، كأنما التاريخ كله تجمع
منذ بدايته ، أعني منذ بداية دخول الإنسان في العهد
الذي يسمى العهد التاريخي ، واقترب من مصبه ، كالنهر
الذي تجمعت كل روافده فيه عندما أصبح قريباً من
البحر ، ولهذا أصبح الثلث الأخير هذا ممتلئاً بكل
التوقعات . وسينصب قريباً في (سنة ألفين) التي تضع

أمام الإنسانية جمعاء أخطر نقط الاستفهام على مصير الإنسانية منذ بدايتها . لأننا لاندري في الحقيقة كيف تنتهي هذه الحقبة من الزمن .

ونحن باعتبارنا مسلمين أو باعتبارنا بشراً ، نشاطر البشرية مصيرها ، إن الإنسانية تعيش فعلاً ما يسمى حالة طوارئ ، أمام حالة الطوارئ هذه يطرح سؤال : ماهي رسالة المسلم ؟ إن رسالته قد نلخصها في كلمة لا تعطينا حلاً ولكن تشفي إلى حد ما غليلنا لأنها كلمة مقبولة . وهي مقبولة من ناحية لأن الظروف تفرضها علينا ، وتعارض من ناحية أخرى - ربما في أعماق أذهاننا - مع مقدمات تتنافى مع مقتضيات الرسالة .

فما هي رسالة المسلم أمام حالة تتطلب الإنقاذ ؟

الجواب : إنقاذ نفسه وإنقاذ الآخرين .

هذه هي رسالة المسلم . أليس في أذهاننا مقدمات سلبية تتناقض مع هذا الزعم ، كأننا انجذبنا إلى شيء من الغرور ؟ كيف يستطيع الإنسان المسلم الذي لا يتمتع

بالقدر الكافي من الإمكانيات الحضارية حتى لتحقيق
لقمة عيشه ؟ كيف يستطيع إنقاذ الآخرين ؟ وكيف
يتطلع لهذه الرسالة ؟ .

إذا تساءلنا هذا السؤال يجب علينا أيضاً أن نتساءل
بهذا المنطق نفسه : لماذا استطاع ذلك أولئك الأعراب
الفقراء في عهد محمد ﷺ ؟ لماذا قام أولئك الأعراب
الفقراء الأميون بإنقاذ الإنسانية وشعروا أنهم جاؤوا من
أجل إنقاذها ؟ فقد كانوا يعلنون هذا في أقوالهم
ومخاطباتهم للآخرين سواء من أهل الفرس أو من أهل
روما . كانوا يقولون لهم : لقد أتينا لننقذكم . إنهم لم
يشعروا بمركب النقص . لماذا لم يشعروا بمركب النقص ؟
لأن الإمكانيات الحضارية المتكدة أمامهم في فارس أو
في بيزنطة أو في روما لم تفرض عليهم النقص ، وبعبارة
أخرى لم تبهرهم ، كانوا يشعرون أمام الإمكانيات
الحضارية المتكدة ، بإرادة حضارية تفوق كثيراً
ما تبقى منها لدى المجتمعات المتحضرة في ذلك العصر .
كذلك الحال اليوم لو أننا عقدنا موازنة . فليس إذن من

الصعب أن يقوم هذا المسلم الفقير ، الأعزل ، هذا المسلم الذي يضحى بمصالحه الكبرى حتى في هيئة الأمم ، أن يقوم على الرغم من ذلك بفضل إسلامه فقط ، بمهمة الإنقاذ ، ولهذه المهمة شروط ربما نشرحها إذا اتسع المجال لذلك . إنه بفضل إسلامه لا غير يستطيع اليوم إنقاذ الإنسانية المتورطة في الضياع على الرغم من علمها وكبريائها وتكنولوجيتها . غير أن كل رسالة تقوم على إعجاز ؛ رسالة موسى قامت على إعجاز ، كانت عصا موسى تلتقف ما يافكون ، حتى خرّ السحرة ساجدين ، واعترفوا بإله هارون وموسى . إعجاز عيسى كان إنقاذ المرضى من أمراضهم وإحياء الموتى أحياناً .

إعجاز النبي صلوات الله عليه وأزكى التسليم تعرفونه جميعاً ، فقد أيدته السماء بالقرآن وأيدته بخلقه العظيم وأيدته أحياناً بالملائكة . وهلمّ جراً .

فالיום أيضاً إذا أراد المسلم أن يقوم برسالة ، فهذا يتطلب نوعاً من الإعجاز تفرضه الظروف الخاصة التي تمرّ بها الإنسانية اليوم ، على اعتبار أن الإعجاز هو مجموعة

شروط منطقية وغير منطقية أعني خارجة عن المنطق ،
مجموعة شروط تحقق أمرين : الاقتناع والإقناع .

الاقتناع أولاً لأن فاقده الشيء لا يعطيه ، فلا يمكن
للمسلم إن لم يقتنع بأن له رسالة أن يبلغ الآخرين هذه
الرسالة ، أو فحوى هذه الرسالة أو مفعول هذه الرسالة .
إذن يجب أن يقتنع هو أولاً . وأنا أعني قناعته برسالته
في الثلث الأخير من القرن العشرين ولا أتكلم عن
اقتناعه بدينه . فكل مسلم مقتنع بدينه من يوم أن
نزلت الآية الأولى في غار حراء . ومن يحاول أن يأتي
للمسلمين بوسائل لاقتناعهم بدينهم فإنما يضيع وقته وربما
يضيع وقت المسلمين أنفسهم . فالمهم في الأمر اليوم أن
نلاحظ أن الشكوك التي تسربت إلى عقول الآخرين عن
المجتمع الإسلامي إنما تتناول رسالة المسلم لا عقيدته . فهل
الإنسان الذي يستمع إلى المسلم وهو يتحدث عن رسالته ،
إنسان تفحص أو راجع أمر القرآن من حيث هو فكرة
صحيحة ؟ إن هذا هو من شأن بعض الاختصاصيين :
بعض الأفراد من النخبة مثل (لامارتين) الذي خصص

أكبر فصل كتبه إنسان حياة النبي ﷺ أو (برناردشو)
أو (توماس كارليل) . أما الجموع الغفيرة من الناس
فلا تصبر لتدليلنا المنطقي أن الله واحد لا شريك له ،
وأن النبي رسوله ، وأن هذا الدين صحيح . لقد أصبح
هذا كله مسلمات . أما بالنسبة للآخرين ، فإن كان من
النخبة فيمكن أن يدركه من خلال كلامنا ، وهو في
الحقيقة لا ينتظر كلامنا ، بل ينصرف بمجده الخاص إلى
هذا النبع من النور ، ويشعر بأن الإسلام فعلاً حقيقة
منزلة من السماء .

أما الجموع الغفيرة ، أما مئات الملايين من البشر ،
الذين تخصصهم رسالة المسلم في هذا الثلث الأخير من القرن
العشرين ، فهي تقول دعونا نلمس ، وقولها آت من
كونها نشأت على ما يسمى المنطق العملي أو كما يقول
المسيحي منطق القديس (توما) . ف (توما) هذا
حينما رجع المسيح بعد أربعين يوماً إلى الحواريين قال لهم
إنني عدت من السماء ... إلخ . ورفعني الملائكة ... إلخ
فسأله (توما) وأين آثار الصليب على يديك وعلى

قدميك ؟ أرني كي ألس هذه الآثار بيدي لا بعقلي . هذا قولهم بالطبع وليس قولنا ، وإنما نذكره بوصفه عينة من تفكيرهم ومن أوضاعهم النفسية أمام الأفكار . فهل هم يتصلون بالأفكار عن طريق المنطق الذي نعتبره نحن السند الأول لإبطال أو تأييد فكرة معينة ؟ كلا إنهم لا يطرقون الموضوع من هذا الباب وإنما من باب (سان توما) .

فما هو واضح في تصوري أنا المسلم ، ليس واضحاً بالنسبة للآخرين الذين ينبغي علي أن أتقدم إليهم ، أخذاً بالاعتبار تصورهم هم لا تصوري أنا عن حقيقة المسلم . لأن حقيقة المسلم محجوبة عن نظر الآخرين . إن حقيقة المسلم ، كرامة المسلم ، فضيلة المسلم ، أخلاق المسلم ، شرف المسلم ، عزة المسلم ؛ كل هذه الأشياء تخفيها عن نظر الآخرين المظاهر الاجتماعية . وهي تشهد بكل أسف في نظر الآخرين على المسلم وضده . فالمسلم فقير ، والمسلم جاهل ، المسلم كذا ... الإحصائيات الموجودة في العالم كذا ... إلخ ...

فنحن حينما تكلمنا عن الإعجاز الذي يتضمن شروط الاقتناع وشروط الإقناع ، تكلمنا عن شيء جوهري جداً ، أعني أن المسلم لا يستطيع أن يقوم برسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ، إلا إذا حقق من خلال منطق خاص لرسالته كل شروط الاقتناع وكل شروط الإقناع .

ومن هنا نرى ما يترتب على المسلم من القيام بواجبات ملحة ، حتى يفي بشرط إعجازه في هذا الثلث الأخير نحو نفسه ونحو الآخرين ، إنه يحتاج أحياناً إلى هذه الوسائل حتى بالنسبة إلى إخوانه المسلمين المعرضين ، لأنهم يخضعون هم أيضاً لمنطق (سان توما) الذي يريد أن يلمس الأشياء بيده حتى يعترف بوجودها . أليس في صفوف شباننا عدد ينطق بقضاياها بطريقة (سان توما) ، يعني بلمس اليد لا بالنظرة العقلية ، بحيث يجب فعلاً أن تتوافر لرسالة المسلم كل شروط الاقتناع وكل شروط الإقناع ؟ ولن يتوافر هذا إلا بتغيير في داخل المسلم ، في أغوار نفسه وحول المسلم في

محيطه الخاص أو في محيطه العالمي ، لأننا حين تكلمنا في بداية الحديث ، عن الأزمة الإنسانية المواجهة لأزمتنا نحن المسلمين ، رأينا أزمة إنسانية من أخطر ما واجهته الإنسانية منذ بداية تاريخها ، وكنتيمة لهذه الأزمة بصورتها ، الصورة الخاصة بالمسلم والصورة الخاصة بالإنسان المتحضر ، أصبح العالم كأنه ازدواجية ، ازدواجية بين عنصرين متوازيين لا يتصلان إلا عن طريق شبكة علاقات متناقضة . هناك في العالم اليوم إذا تصورناه كلاً ، صلات من الطرف المتقدم ومن الطرف المتخلف الذي يسمى العالم الثالث ، إذا تفحصنا كيف تسير العلاقات بين الطرفين نراها تسير وفق ثلاثة أصناف ؛ ففي المجال الاقتصادي ، أصبح كل شيء في منطق القرن العشرين يفسر بالاقتصاد وأصبح كل شيء يخضع للاقتصاد ، نرى أن طرفي العالم يتعاملان على أساس علاقة اقتصادية متناقضة ، في طرفها الأول المجتمع الذي ينتج المواد الخام كالنفط وغير ذلك من المواد الأولية ، وفي طرفها الثاني من يحول هذه المواد الأولية

إلى منتجات حضارية ، وطبعاً على حساب العالم الثالث أي على حساب اقتصاده وعلى حساب نموه ، كما هو ظاهر لنا مثلاً في قضية النفط ، خصوصاً قبل خمس أو ست سنوات ، حين كانت مادة النفط تدر على أصحاب التروستات وعلى أصحاب الاحتكارات عشرات المرات ، أكثر مما تدر على أصحاب البلاد المنتجة . هكذا كان الوضع في المجالات الأخرى حيث كانت الصلات الاقتصادية تسير على هذه الوتيرة .

وفي المجال السياسي كانت العلاقة أيضاً متناقضة في طرفيها . كان الحوار بين متكلمين : في الطرف الأول الاستعمار ، وفي طرف آخر القابلية للاستعمار . هذا الوضع الذي كان ، وأخشى أن أقول ولا يزال قائماً بين الاستعمار وبين القابلية للاستعمار ، لأننا لم نغير شروط القابلية للاستعمار في أنفسنا . غيرنا بعض السطحيات ولم نغير القابلية للاستعمار ، غير أن ضغط بعض الظروف وقوة الأشياء ، جعلت بعض المواقف الاستعمارية تتغير إلى حد ما ، ولكن لم تتغير كلها ولن تتغير ، مادامت

القابلية للاستعمار هي التي تحاورها في المجال السياسي .

وفي المجال النفسي أو الثقافي هناك محوران : محور ثقافي هو مانسميه محور (واشنطن موسكو) ، وهو محور واحد لا يختلف فيه شرقه عن غربيه ولا غربه عن شرقه في هذه الناحية .

هذا المحور يطرق أو يطرح كل مشكلاته بمنطق القوة . بينما يجب على المحور الآخر أعني محور (طنجة - جاكارتا) الذي نعيش عليه نحن ، نحن المجتمعات المتخلفة وخصوصاً نحن المسلمين يجب علينا أن نطرح المشكلات بمنطق البقاء ، لأننا بحاجة إلى رفع مستوى بقائنا ، إلى مستوى الحضارة ، وهذا يتنافى مع طرح القضايا بمنطق القوة ، ولا تستطيع ولا تسمح لنا ظروفنا بغير ذلك ، ولا يهمنا ولا يهم الإنسانية التي تعد نفسها متقدمة أن ترجع إلى رشدنا . لا يهم أن تطرح أمريكا مثلاً اليوم كل مشكلاتها بمنطق القوة ، بينما مجتمعاتها أيضاً يعاني أعراض التخلف ، خاصة المدن الصناعية الكبيرة مثل نيويورك وديترويت وشيكاغو .. إلخ . هذه المدن

أصبحت فيها عينات تدل على أن التخلف بدأ يتفشى في المجتمع الأمريكي ، ومع ذلك فأمريكة تخصص كل إمكانياتها لطرح مشكلاتها بنطق القوة .

أما نحن فمضطرون أن نطرح مشكلاتنا بنطق البقاء ، حتى نستطيع أن نتقدم بعض الخطوات ، حتى نستطيع أن نرفع مستوانا إلى مستوى الحضارة ، وهنا يفرض علينا طبعاً هذه العلاقات الثلاثية المتناقضة ؛ العلاقة الثقافية ، العلاقة النفسية ، العلاقة السياسية . إذ يجب علينا أن نصفي هذه الخريطة للعلاقات العالمية حتى يتسنى لهذه الإنسانية أن ترفع مستواها إلى مستوى القداسة ، أن ترفع هذه الإنسانية مستواها الواقعي ومستواها الثقافي إلى مستوى القداسة ، وإلى المستوى الذي تستوعب معه مسوغاتها الجديدة في المرحلة الخطيرة التي تمرُّ بها الإنسانية اليوم ، في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين ، إذن يجب على المسلم البذي يضطلع برسالته أن يفكر في إعجازه ، وإعجازه لا يتأتى إلا بتحقيق شرط جوهرى ، وهو تغيير ما بنفسه وتغيير ما في

عيطه مصداقاً للآية الكريمة :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١٣/١٢] .

ولا يمكنه أن يغير شيئاً في الخارج إن لم يغير شيئاً
في نفسه . وحينما نقول هذه الكلمة نقولها باعتبارها
علماً ، ولا نقولها فقط تبركاً بآية ، نقولها (علماً) ونعلم
مقدارها من الصحة العلمية ، لا يستطيع مسلم أو غير
مسلم أن يغير ما حوله إن لم يغير أولاً ما بنفسه ، فهذه
حقيقة علمية يجب أن نتصورها قانوناً إنسانياً وضعه الله
عز وجل في القرآن ، سنة من سنن الله التي تسير عليها
حياة البشر .

إذن لكي يتحقق التغيير في محيطنا يجب أن يتحقق
أولاً في أنفسنا . وبذلك تتوفر شروط رسالة المسلم في
الثلث الأخير من القرن العشرين ، وإلا فإن المسلم لن
يستطيع إنقاذ نفسه ولا إنقاذ الآخرين .

ثم إذا كان منهج الرسالة يقتضي التغيير ، والتغيير

يقتضي تغيير ما في النفوس أولاً ، إذا كان منهج الرسالة يقتضي هذا ، فإننا نستطيع أن نتكلم عن وسائل الرسالة أو الطرق العملية لتطبيق هذه الرسالة كي تفي بمهمتها ، ألا وهي الإنقاذ أو مواجهة حالة إنقاذ أو حالة طوارئ تخص المسلم وتخص الإنسانية عامة . عندها يجب على كل مسلم أن يحقق بمفرده شروطاً ثلاثة :

١ - أن يعرف نفسه .

٢ - أن يعرف الآخرين ، وألا يتعالى عليهم ، وألا يتجاهلهم ، وهنا يجب أن تحل عقدة نعرفها ، وهي أن المسلم يزهد كثيراً في عالم النفوس مما يتصل بالآخرين ، لا يجوز للمسلم أن يجهل ما في نفوس الآخرين ، ولا يجوز أن يتعالى على الآخرين ولا أن يتسامى عليهم بدعوى أنه أعد للجنة وأعد للتكريم ، يجب عليه أن يعلم ما في نفوس الآخرين ويجب عليه أن يعلم ذلك لأمرين لا لأمر واحد ، إما لكي يتقي شرهم عن معرفة وإدراك لكل معطيات نفوسهم ، وإما لتبليغهم إشراق الإسلام وإشراق الهداية الإسلامية . فهو إن لم يعرف النفوس

فكيف يقدر أن يتصرف معها بحكمة ؟ إن لم يعرف نفوس الآخرين وظلت صناديق مغلقة عليه فكيف يبلغها الهداية الإسلامية ؟ إنه لن يستطيع . يجب إذن على المسلم بعد أن يعرف نفسه أن يعرف نفوس الآخرين .

٣ - ويجب عليه في الشرط الثالث أن يعرف الآخرين بنفسه ، لكن بالصورة المحببة ، بالصورة التي أجريت عليها كل عمليات التغيير بعد التنقية والتصفية من كل رواسب القابلية للاستعمار والتخلف وأصناف التقهقر ، كل أصناف التخلف وأصناف التأخر . ويجب عليه أولاً أن يقوم بهذه التصفية حتى يقدم للآخرين صورة مقبولة محببة بوصفها غينة من العينات البشرية التي يصنعها الإسلام ، أما إذا تقدم المسلم إلى الآخرين بوصفه عورة يجب أن يستحى منها ، فالعورة تستر ولا تكشف ، والعورة لا يمكنها أن تبلغ إشعاعاً . الجهل عورة الفقر الذي يسببه كسلنا ، وكسلنا عورة ، الفوضى عورة وهذه العورات كلها لا تستطيع ولا تتيح لشخصية المسلم أن تبلغ إشراق الإسلام .

إذن هناك شروط ثلاثة يجب أن تتحقق ، أن يعرف المسلم نفسه بالتدقيق وألا يغالط نفسه في معرفة نفسه ، لأنه طالما عمي المسلم بسبب هذه المغالطة ؛ يا ليت له لم يلعن طيلة القرن الماضي الاستعمار بل القابلية للاستعمار ، ولو فعل ذلك لكان اليوم ذا صورة محببة ومرضية لنفسه وللآخرين .

إذن يجب على المسلم أن يعرف نفسه من دون مغالطة ، وأن يعرف نفوس الآخرين من دون كبرياء وتعال ، وبكل أخوة وصدق وإخلاص أن يحبهم لوجه الله حتى تصل إليهم عن طريق وعلى جسر هذه المحبة ، حرارة الإسلام ، حرارة الحب الإسلامي وكل ما يندرج بمفهوم التغيير ، يجب أن نتوخى فيه أمراً ألا وهو أن كل فكرة لها جانبان :

جانب الصحة ، وجانب الصحة .

قد تكون فكرة ما صالحة وليست صحيحة ، وقد تكون فكرة صحيحة ثم فقدت في الطريق صلاحيتها لأية أسباب . ألسنا نشعر نحن مثلاً بأن ديننا وهو

أوضح من حيث الصحة من شمس النهار ، أنه إلى حد ما
وبسببنا نحن ، وبسبب تقاعسنا وتكاسلنا ونومنا في
النهار فقد بعض صلاحيته . كأن هذه الفكرة المقدسة
التي أنزلها الله على محمد عليه الصلاة والسلام ، هذه
الفكرة - التي لا يختلف في صحتها عقل سليم مع عقل
سليم - تبدو اليوم وكأنها فقدت صلاحيتها .

أين كرامة المسلم ؟ أين عزة المسلم ؟ أين مجد
المسلم ؟ أين علم المسلم ؟ أين نزاهة المسلم ؟ أين بطولة
المسلم ؟ أين استشهاد المسلم ؟ أين شهادة المسلم ولو على
نفسه ؟

المسلم فرط في كل هذا . المسلم فرط وضع وأتلف
كل هذا .

والغرب أو الحضارة الغربية أتلفت مسوغات
وجودها ، وهي تعاني هذه الأزمة التي أشرت إليها .

والمسلم يضيع القيم الإسلامية التي كانت تشرق على
وجهه ، وتجعله في نظر الآخرين أجمل صورة إنسانية في

التاريخ ، فقد كان أحد المؤرخين في أوائل القرن التاسع عشر ، هو المستشرق (فرينو) الذي ترجم جغرافية أبي الفداء ، يذكر في مقدمته وهو يعلق في مقطع يخص رحلة أبي الفداء إلى نواحي (الفولغا) ، حيث كانت تعيش قبائل صقالبة متوحشة كما يصفها أبو الفداء ، وكان أبو الفداء مرتدياً لباسه العربي وعمته العربية . ففرينو هذا وكأنه لاحظ شيئاً غريباً ، يقول : كان العربي يريد أن يظهر في كل مكان بزيه القومي ، نعم لأن صورته في نظر الآخرين كانت هي الصورة المثلى لبني آدم بفضل الإسلام .

أقول هذه الكلمات ، وصية لإخواني ولأبنائنا الكرام من الطلبة ، وأدعو الله أن تتحقق رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين بفضل هؤلاء الشباب ، وإخوانه في مصر ، وإخوانه في ليبيا ، وإخوانه في الجزائر ، وإخوانه في كل البلاد الإسلامية ... أن تتحقق هذه الرسالة لإنقاذ المسلم من كسله ولإنقاذ الإنسان المتحضر من استهتاره والسلام عليكم .